الأثر الديني في النظرية الشعرية والنقدية العربية

د. علي خفيف

جامعة باجي مختار عنابة

توطئـــــة:

يحاول كثير من النقاد الجدد، علمنة النظرية الأدبية العربية بإبعادها عن الفكر الديني، ولكن الحقيقة التي يقود إليها البحث العلمي، أنّ النظرية الأدبية العربية نشأت تابعةً لنظرية الإعجاز القرآني، وأنّ كل ما أثار النقاد العرب من قضايا، اقتبسوها من الأفكار الدائرة حول إعجاز النص القرآني، ولذلك سأعرض للتطور التاريخي لنظرية الإعجاز، وللقارئ أن يقارن ويستخلص ،كيف أنّ النظرية الأدبية برمّتها، ليست سوى صدىً لأفكار علماء الإعجاز، وقد بلغت ذروتها مع نظرية النظم للجرجاني، واستمر ذلك إلى عهودٍ متأخرة!..

ولعلّ هذا المنحى هو الذي جعل بعضهم اليوم يسمُ اللغة العربية وآدابها، بأنها تحمل في طياتها شحنات أصولية لتواشج علومها مع الدين، لأنها ازدهرت في ظل النص الديني وفي خدمته، وبالتالي أصبح وجودها لا يمثّل بعداً فنياً فحسب، بل بعداً عقائدياً وأيديولوجياً، يرى البعض ضرورة فصله عن الجانب الفني، ومن هنا بدأ السعي من قبل البعض عن قصد أو عن غير قصد للترويج للأفكار البنيوية والشكلانية الصرفة، من أجل تطبيقها على الأدب العربي لإفراغه من محتواه الفكري والعقدي... ومن خلال تضخيم جوانبه الشكلية، والتركيز على جمال ألفاضه، وأساليبه، وبديع هندسته ومعماره، من أجل لفت الانتباه إلى النص دون الرسالة، وإلى الخطاب دون أفعال الخطاب، و إلى الفني دون التداولي..

الظاهرة القرآنية – الظاهرة البيانية:

يجدر بنا القول هنا أنّ الشعرية العربية عرفت تحوُّلاً عميقاً، وثورة جذرية بفعل عاملين هامين هما: النص الديني مندرجاً ضمن المعطى الديني العام الذي غيّر كثيراً من الأفكار المحيطة بالحياة العربية بشكل جذري وعميق، والوافد الأجنبي الذي وصل لاحقاً عن طريق الاحتكاك بالشعوب الأخرى، والإطلاع على ترجمات لبعض النصوص الوافدة، والتي مثّلت مرجعية خاصّة، لتيار معين من الفكر داخل المجتمع العربي فيما بعد.

قبل هذين الوافدين طبعت الشعرية العربية رتابةٌ شديدة مع النّص الشعري الجاهلي ولم يكن فيها كثير من الخيال، بل كانت تنزع نحو المحسوس والمباشر، والصورة المرئية[1]، لكن الأمور ما لبثت أن تغيّرت بصورة ملحوظة جدًّا بعد مجيء الإسلام، فكما يقول عبد المنعم تليمة: «...بعد مجيء القرآن الكريم اتّسعت مادة الأدب العربي القديم لتشمل كلّ النّصوص الدينية والأسطورية، والملحميّة القديمة، وأصبح الأدب العربيُّ يرتدُّ إلى أقدم الآثار الإبداعية في العالم...»[2].

فلا شك في أنّ نزول القرآن الكريم كان بمثابة زلزال عظيم في الحياة العربية بصفة عامة، في الفكر، والسلوك، وفي الوجدان...فقد أدهش المؤمنين منهم والكافرين، لما وجدوا فيه من سحر البلاغة، والتأثير في النفوس...جاء من الفصاحة بدرجة لا تبارى، ولهذا احتار المشركون في وصفه، وخافوا من أن يستميل إليه قلوب مستمعيه، فصاروا يصدّون عنه، وينأون عنه، ويصفونه مرة بأنه شعر، ومرة بأنه سحر، ولم يستطع فصحاؤهم إنكار روعته في النفوس، وتغلغله في القلوب[3]. ولذلك قال الوليد بن المغيرة، وهو من فصحاء قريش ووجهائها لما استنجدوا به من

---

[1] أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب دار الكتب العلمية بيروت ط1 1995 ص 113.

[2] طه حسين: "في الشعر الجاهلي". مقدمة عبد المنعم تليمة، دار النهر لنشر والتوزيع ط6 1996. المقدمة.

[3] سيد قطب: التصوير الفني في القرآن دار الشروق بيروت ط9، 1987 ص 25.

أجل أن يقول شيئا في القرآن يبعد به الناس عنه: «والله إن له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن ليحطّم ما تحته، وإنه يعلو وما يعلى عليه [...] ولكن الأقرب أن تقولوا عنه إنّه سحر»[1]، غير أن القرآن تحداهم في آيات كثيرة، منها قوله عز وجل: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»، الإسراء الآية: 88.

"لقد هزم بيانه بيانهم، وقوّض قرآنه شعرهم، لأنه أضفى على الحياة والنفوس صورة قبست صِبَاغَهَا ووَشْيَهَا من ألوانٍ لايُتاح للشعراء أن يخلعوها على أغانيهم وأحلامهم".

لقد نظروا إليه على أنه الغاية في كل شيء. قال ابن مسعود: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإنّ فيه علم الأولين والآخرين..، وقال: إذا وقعت في آل حميم وقعتُ في روضات دمثات أتأنّق فيهنّ»[2].

"إنّ من البيان لسحراً" تكشف لنا سورة المدثّر عن عمق أثر القرآن في نفوس المشركين، وترسم لنا بالصورة والصوت محاولات الهروب من النفس ومغالبة الحقيقة (حالة الوليد بن المغيرة) حين يهجم القرآن على نفوسهم، ويأخذ بمجامع قلوبهم، فلا يستطيعون التفلّت من أسره.

لقد سجّل لنا القرآن قصة الوليد بن المغيرة في بدء سورة المدثّر: «..ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنّه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنّه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبصر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر، إن هذا إلاّ قول البشر، سأصليه صقر، وما أدراك ما صقر، لا تبقي ولا تذر..» (أوائل سورة المدثر).

---

[1] انظر الزمخشري: تفسير الكشّاف، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الجزء الرابع (سورة المدثّر)، ص 183.

[2] نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة، بيروت 1980 ص 25.

«لقد روي أنّها نزلت في الوليد بن المغيرة حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهلٍ فأتاه، فقال له: يا عم إنّ قومك يريدون أن يجعلوا لك مالاً، فيعطوكه فإنّك أتيت محمداً لتصيب ما عنده[1].

(وهو يستثيره بذلك ويريد أن يغمزه في مواطن عزته) فقال الوليد: قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً، قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكر له، وأنّك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمرٌ أعلاه مغدقٌ أسفله، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنّه ليحطّم ما تحته، قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر، فلما فكّر قال: "ما هو إلاّ سحر يؤثر"»[2]. إنّ هذا الذي وصف به الوليد القرآن حين تحرر — في لحظة صفاء- من قيود الهوى، وسطوة الجماعة، وجموح العناد، هو من أروع ما وصف به القرآن على لسان المؤمنين والكافرين، ولو أنّ أحداً سمع هذا الوصف من غير أن يعرف نسبته للوليد لأيقن أنه من كلام فصيح عشق القرآن وعذب لسانه بتلاوته.

لقد ملك القرآن على الوليد أقطار نفسه، واستثار كلّ مواطن الحس والإدراك، عنده، حتى نطق بهذا الكلام البليغ، الذي دلّ على ملكةٍ ناقدة، وقدرة بيانية هائلة، استطاع بها أن يجمع مناحي الجمال في القرآن شكلاً ومضموناً (إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة) وكشف عن تأثيره وإمتاعه، وخصب ألفاظه ومعانيه، فمن أي جهة جئته أفاض عليك ما لا طاقة لك باستيعابه (وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله) وحكم حكماً نهائياً بأنّ بياناً من بيان البشر لا يمكن أن يطاوله، ربما لهذا رفضوا قبول التحدي، لأنهم إن قارنوا تراثهم البياني الرفيع، بالقرآن حطّمه...

---

[1] محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن، دار البعث الجزائر 1986 ص 102

[2] إبراهيم السعافين وآخرون: أساليب التعبير الأدبي دار الشروق للنشر والتوزيع عمّان الأردن 2000 ص 13.

"إنّه ليعلو ولا يعلى عليه" وهو اعتراف واضح بإعجاز القرآن، ولذلك لم يستجيبوا للتحدي، حتى لا ينقص من جلالة تراثهم الكبيرة في أنفسهم.

القرآن الكريم منطلق الثورة في التفكير النقدي العربي: في بداية الأمر، كان التسليم المطلق بالقرآن في كل شيء، ولكن لما قامت الفتنة، زمن عثمان وعلي، بدأ الخلاف في تفسير آياته للانتصار إلى الجهة الملتمي إليها (أصبح التأويل خادماً للخلاف السياسي). هذا الخلاف ما لبث أن أفرز خلافاً مذهبياً (الشيعة، والخوارج، وعامة المسلمين). ثم لما توسعت الفتوحات اختلط المسلمون بسكان البلاد المفتوحة الذين كانوا في كثير من الأحيان أكثر منهم مدنية وثقافة، وبالتالي أصبحت المناقشات الفكرية ضرورية للإقناع بالقرآن.

وفي العصر العباسي، أصبحت الحرية الفكرية مطلقة، ففتح المجال لمناقشة قضايا النص القرآني، وحتى معارضته من قبل أدباء كبار، كما فعل ابن المقفّع، والمتنبي، والمعرّي وغيرهم[1]، وفتح المجال حتى للاجتهاد المغرض فيه أحياناً... إلى أن قال بعضهم عنه إنه مخلوق...

كل ذلك حرّك العلماء بدافع ديني جامح إلى الاشتغال على النص القرآني، والبحث في خصائصه، ومناحي تفرّده، فانطلقت الأبحاث تترى على مدى خمسة قرون كاملة، كلّلت بالتراث المترامي الأطراف الذي بحث في مناحي إعجاز النص القرآني وخلّفه جهابذة أمثال: الجاحظ، والأشعري، والطبري، والرّماني، والخطابي، والباقلاني، وأبي هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني الذي كلّل الجهود بنظرية النظم المتفرّدة، وتلاه الغزالي، والزمخشري، وابن رشد، والسكاكي، وابن العربي، والآمدي، والطوسي، وحازم القرطاجني...وغيرهم.

كل هذا الكم الهائل من البحوث البيانية والبلاغية، التي شكّلت ركيزة هامّة من ركائز الشعريّة العربيّة، كانت بدافع دينيّ، ومقصديةٍ عقائدية ليست خافية، وهو

---

[1] بكري شيخ امين: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت ط1 1980 ص 147.

ما يجعل كل العلوم التي نشأت حول النصّ القرآني والتي تندرج ضمن لبّ الشعرية العربيّة، مثل علوم الفصاحة والبيان والبلاغة والنحو وطرائق الحجاج، وعلم الكلام، والأصول، وغيرها إنما تطورت بدافع خدمة النصّ الديني وبالتالي فهي ذات غرض نفعي، وهو صميم ما تمثّله الدراسات التداولية في أيامنا. وإلى القارئ بعض النماذج من الجهود العلمية التي بذلت في سياق النص الديني لاستكناه سر شعريته ضمن ما عرف ببحوث الإعجاز، وقد كان لكل ذلك أثر كبير على نظرة العرب للشعرية بصفة عامة.لقد انطلقت دراسات الإعجاز القرآني من الآيات التالية:

1. "...قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" الإسراء. الآية: 88.
2. " أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة من مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين" يونس الآية: 38.
3. " أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين" هود. الآية 13.
4. والآيات السابقة كلها مكيّة وهي متتالية في تاريخ النزول.
5. " فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين" البقرة. الآية 23.

هذا التحدّي الأخير جاء في سورة البقرة وهي مدنية كما هو معلوم.

وقد قام بهذه الدراسات المتعلّقة بإعجاز النص القرآني جماعات متعدّدة المشارب، يمكن تصنيفهم في أربعة أقسام كما يلي:

1. جماعة المعتزلة
2. المتكلمون
3. المفسّرون
4. الأدباء

وقد يتداخلون كأن يجمع أحدهم بين الأدب والاعتزال كالجاحظ، أو الاعتزال، وعلم الكلام والتفسير كالزمخشري. حيث يستمد بعضهم من البعض الآخر.

ويمكن تركيز جل أفكارهم حول الإعجاز القرآني في محورين رئيسيين:

- **أولهما**: لفظي، بياني، يرجع إلى أسلوب القرآن الكريم المخالف لما ألفوه من اساليب.

- **ثانيهما**: خفيّ أو داخلي، أو تشريعيّ وفكري، يدرك بالذوق أحياناً، وبالعقل أحياناً أخرى، ويصعب تعليله أوبيانه في أحايين أخرى.

وما يهمّنا هنا كثيراً هو المحور البياني، لأنه هو الذي انعكس فيما بعد على طبيعة الشعريّة العربيّة، وقد عللّ كثيرٌ ممّن درسوا "معجزة البيان في القرآن" القضية، بقولهم: «إنّ معجزة كل نبي كانت من جنس الفن الذي اشتهر في قومه إلى عهده، ولذلك كانت معجزة موسى من جنس السحر، ومعجزة عيسى من جنس الطب، لأنهما الفنّان الذّائعان في عهدهما، وجاءت معجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، من جنس الفنّ الذي اشتهر به العرب، وبلغوا به الذروة، وكانوا يتفاخرون به، ويسامي فيه بعضهم بعضاً، وهو البيان»[1]، ولذلك قال ابن العربي (ت 638 هـ): «إن معجزات بني إسرائيل حسية لبلادتهم، ومعجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكاء أبنائها»[2].

فلا شك أن العرب حين نزول الوحي بلغوا من الفصاحة والبيان غاية بعيدة واستقامت تعابيرهم إفراداً وتركيباً... ولا شك أن قريشاً، كانت أكثر العرب فصاحةً، وأرجحها أحلاماً، وأكثرها تحضُّراً، وأرفعها مستوىً عقلياً لأنها كانت مركزاً تجتمع فيه

---

[1] نعيم الحمصي، م، س، ص 13

[2] انظر السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر بيروت (د ت).ج2. ص.198 (قال السيوطي عن كتاب ابن العربي حول الإعجاز إنه لم يصنّف مثله

كل القبائل: عدنانيّة كانت أم قحطانيّة، شماليّة أو جنوبيّة، لمكانتها الدينيّة والتجاريّة...

وعلى الرغم من ذلك حيّر البيان القرآني ألبابهم لما فيه من تكرار المعنى الواحد بالعشرات والمئات من العبارات المختلفة في النظم والأسلوب، وبلاغة العبارة، وقوّة تأثيرها في قلوب القارئين، والسّامعين لها، وعدم وقوع الاختلاف بالتناقض أو التّعارض في شيءٍ منها.

جاء القرآن والعرب قد ملكوا ناصية البيان، فأعجزهم بما فيه من بيان وأسلوبٍ وفكرة، وعاطفة متأجّجة وخيال، وحُسْنِ معرفة في مخاطبة النفس، وما فيه من علم وإخبار عن الماضي والمستقبل.

لقد كان للعرب القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار المعجزة، ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور، ولكنهم عجزوا عن محاكاة القرآن أو معارضته[1]، رغم محاولة الكثيرين منهم ذلك أمثال: مسيلمة الكذّاب، وطليحة بن خويلد الأسدي، وسجاح بنت الحارث التميميّة، والأسود العنسي في اليمن، والنضر بن الحارث وغيرهم[2].

ولم تكن الألفاظ هي التي تعوزهم، لأنه لم يستعمل إلاّ ألفاظاً كانت مستعملة في بيئتهم، ولكن الذي كان يعوزهم هو الألفاظ الخصبة التي تربطها وحدة، شاملةٌ يمكن أن تؤلّف شريعةً، كما أن بلاغة الألفاظ التي أدهشتهم لم تقم على اللفظ والسبك الموسيقي فقط، فهذا جانب يسير منها، ولكن الجانب الأكبر هو تلك الغاية الإصلاحية التي يغذّيها تفكير ناضج عميق، شامل، بعيد النظر، وتغذّيها عاطفة متأجّجة، وخيالٌ خصب، وروح سامٍ يتوخّى تحقيق هدفٍ هو مثل أعلى للحياة البشرية.

---

[1] انظر قول الوليد بن المغيرة السابق الذكر.

[2] بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن م، س، ص 147.

إنّ المميّزات السابقة هي – بحقّ – التي جعلت من النص القرآني أدباً خالداً يتجلّى في الفكرة السامية، التي تتنوع الألفاظ، والأساليب التي تعبّر عنها ولكنها تجتمع أخيراً في وحدة موضوعيّة غائيّة تسعى للمثل الأعلى، وتحقيق خير الإنسانية.. يقول سيّد قطب: «إن الله يحيط بالألفاظ والمعاني فيقدّ الألفاظ على أقدار المعاني، فينتظم منها ما يسحر اللب، ويأخذ القلب...وهو ما ميّز القرآن عن غيره من فنون الأدب...»[1]، لقد جمع القرآن جمال الألفاظ إلى حسن النظم إلى سموّ المعاني إلى قوة التعبير، ولذلك تتجلى حقيقةً، أعلى الطاقات التداولية في الأفكار السابقة، حيث يلتحم الأسلوب الرائع مع الفكرة العبقرية الهادفة إلى تغيير نفوس البشر وحياتهم ومحيطهم، وفيها تجاوز لتيارات ما يعرف اليوم بالبنيوية التي سعت لأن تجعل من اللغة مجرّد ممضوغات خاوية خالية من الأفكار والإبحاز..

التنظير للإعجاز القرآني تنظير للنظرية النقدية العربية:

تأكيداً لهذه الفكرة يمكننا أن نجمع أهمّ الأفكار التي خلص إليها العلماء والنقاد والأدباء الذين اشتغلوا في مجال الإعجاز من اجل معرفة انعكاساتها على الفكر النقدي وسنراعي التطور الزمني لأصحابها بشكل متعاقب فيما يلي[2]:

1) **النظّام (معتزلي) وهو أستاذ الجاحظ:** قال إن القرآن معجزة بالصرفة (أي أن الله صرف البشر عن معارضته).
2) **الجاحظ:** يرى أنه معجز بالنظم.
3) **الرمّاني:** جمع بين النظم والصرفة.
4) **الخطّابي:** جمع أفكار الإعجاز في:

---

[1] سيد قطب: التصوير الفنّي في القرآن. دار الشروق. (دت) ص 195.

[2] انظر: أحمد سيد محمد عثمان: نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، دار الفكر (بيروت، دمشق) 1998 ص 78 وما بعدها

- معانٍ سامية
- أسلوب محكم جميل
- عاطفة قوية تؤثر في القلوب
- خيال فيّاض

ويمكننا ملاحظة أن الأفكار السابقة هي جمّاع الشعرية العربية عبر مختلف عصورها استخلصها الخطّابي ببصيرة نافذة وروح نقدية عالية من النص القرآني، ولعلّ من أجمل ما قاله في هذا السّياق: «...ولقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه النّاس، وهو صنيعه في القلوب، وتأثيره في النّفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السّمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ذوي الروعة والمهابة في حال آخر، ما يخلص منه إليه. قال تعالى: " ولو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله" الحشر. الآية 21».

وقال: " الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعّر منه جلود الذين يخشون ربّهم" الزمر. الآية 23...» [1].

5. الشّريف الرّضيّ: شيعي: الإعجاز عنده قائم على المعنى وليس على الألفاظ. يقول: «إنّ الكلام ألفاظ مقدّرة على معانٍ ملائمة لها، والكلام كالجسد، والمعنى فيه روحه، ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها أجساداً لا تتفاوت كثيراً، فإنها وإن رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم وحسن الهندام، فإنه أمرٌ قريب، وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس، التي هي المعاني، فإن نفسا واحدة

---

[1] انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرّماني والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، حقّقها وعلق عليها محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف مصر ط2 1968، المقدّمة.

تقع بوزان الخلق كلّهم من حيث افتقار النّفوس إليها والحاجة إلى الامتياز منها»[1].

وواضح هنا أن هذا الرأي في الإعجاز قائم على عكس ما ذهب إليه الجاحظ.

6. الباقلاّني: (القاضي الباقلاّني "403 هـ"): من علماء التوحيد، ومن أتباع الأشعري، له رسالة من أروع ما كتب في الإعجاز، يرى أن لغة القرآن سهلة، ومدلولاتها تفهم على أيسر وجه، ولا تتخللها كلمات أو تراكيب عويصة، ومع ذلك فليس في الإمكان مجاراة أسلوبه، ويرى «أن تأليف الكلام في موضوع جديد أصعب من تأليفه في موضوع مألوف، إلاّ أنّ القرآن يعبّر عن أفكار جديدة بطريقة تفوق قدرة البشر»[2].

7. عبد القاهر الجرجاني: (متكلّم وأديب "القرن 5 هـ"): تزعّم نظرية النظم في إعجاز القرآن الكريم، يعتقد الكثيرون أنه أول من ألّف في البلاغة، حيث يعتبرون كتاب دلائل الإعجاز، دليل على أنّ البلاغة في شكلها العلمي ظهرت من فكرة إعجاز القرآن[3]. وهو لبّ ما نذهب إليه في هذه الدراسة حيث أنّ البلاغة العربية نشأت خادمة لفكرة الإعجاز، وهي قمّة ما تذهب إليه التداولية الحديثة. يقول الجرجاني أنه لا يتسنى لأحد فهم الإعجاز، حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة، ويحسن فهمها، واهتم بصفة خاصة ببيان قيمة البلاغة من الوجهة النفسية، من حيث مراعاة وقع الكلام في النفس، ومن حيث مراعاة أحسن الطرق لإفهام النفس الإنسانية ما يريد أن يؤديه المتكلّم.

بعد تأليف الجرجاني لكتاب "دلائل الإعجاز" ألّف كتاباً آخر أسماه "أسرار البلاغة" وفيه أتمّ ما كان بدأه في الإعجاز، وكان قد ألّف قبل هذين الكتابين

---

[1] الشّريف الرّضيّ: تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربيّة القاهرة، ط1، 1955، ص117، وما بعدها.

[2] انظر: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة 1963، مقدّمة المحقق..

[3] انظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز موفم للنشر، الجزائر 1991 مقدمة محمد رشيد رضا.

المشهورين شرحين على كتاب الخطّابي حول الإعجاز... مما يدل على أنّه كان يدور في كل أحواله حول موضوع الإعجاز، وأن فكرة النظم التي تمثّل رواقاً كبيراً في تاريخ الشعرية العربية إنّما خرجت من رحم الدّراسات القرآنية بصفة عامة، والمتعلقة منها بالإعجاز بصفة أخص.

ولأهمية هذه الفكرة التي أصبحت فيما بعد نظرية في النقد العربي وفي تاريخ الشعرية العربية، أود الوقوف عندها، حيث يمكن تلخيص أفكار الجرجاني حول هذه النظرية فيما يلي[1]:

أ- يتم الإعجاز بالصّورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة إلى الحلية في التعبير، والجمال في الأداء، وحسن العرض للمعنى بمعانٍ ثانوية فرعيّة، تكمّله تضفي عليه جمالاً وحلاوةً، فيحسن فيه التصوير ويقوي المعنى بما يستعمله المنشئ من أساليب النظم البلاغية من تقديم وتأخير،واستعارة...وليس الكلام معجز لأنّه حكمة، وليس الإعجاز أيضاً في تلاؤم الألفاظ مفردة أو مركّبة، فإنها موجودة كذلك في كثير من كلام العرب، وإنما هو في حسن النظم، قائماً على مراعاة التلاؤم بين معاني الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى العام بجمالٍ وقوّة. ويتم نظم هذه المعاني متلائمة بالاستعانة بعلم النحو في معناه الواسع في مفهوم عبد القاهر، وهو يشمل عِلْمَيْ النحو والبلاغة[2]، حيث يعتبره خادماً لنظم المعاني وليس خادماً للألفاظ[3]. وقد قصر عبد القاهر جلّ كتاب "دلائل الإعجاز" على التفصيل في الفكرة السابقة.

ب- ليس الإعجاز بمعاني الكلمات المفردة، وإنما هو باجتماعها منظومة لتؤدّي معنىً شاملاً.

---

[1] انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّماني والخطّابي، وعبد القاهر الجرجاني حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف ومحمد زغلول سلام: م، س: ص مقدّمة المحقّق

[2] الجرجاني: دلائل الإعجاز م، س، ص 196،

[3] م، ن، ص 35.

ج- ليس إعجاز القرآن في مراعاة القواطع والفواصل، فهي ليست بأصعب من مراعاة الوزن والقافية في الشعر.

د- يقول إنّ العرب لم يفهموا من الإعجاز الفواصل، والسّكنات والحركات، بل نظروا إلى بلاغة المعنى ويقارن بشكل بارع بين الآية "ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب" وبين المقولة الشهيرة "قتل البعض إحياء للجميع"، أو قول العرب في الجاهلية "القتل أنفى للقتل".

هـ- لا يمكن أن يكون الإعجاز في الاستعارة، أو ما يتعلّق بالبديع، لأنها ليست موجودة في كل آيات القرآن.

و- يؤمن بأنّ عمدة إدراك البلاغة في النظم، والإعجاز فيه، هو الذوق والإحساس الروحي، وكثرة الإطلاع على كلام العرب (الدلائل ص 418).

ي- يرى أن معجزة النبي كانت بلاغة القرآن، لأن معجزة كل نبي كانت من النّاحيّة التي اشتهر بها قومه.

ل- ينكر أن يكون القرآن معجز لمجرّد أنه كلام الله (وهذا الرأي قال به ابن حزم).

خلاصة القول: أن الجرجاني ألبس نظرية النظم ثوباً قشيباً، ونقلها من حيّز الألفاظ إلى حيّز المعاني.

8. الزمخشري: بنى فكرة الإعجاز، في تفسيره "الكشّاف" على خصائص الكلمات، والنظم في التعبير، وهو قريب من رأي الجرجاني، **الإعجاز** عنده قائم على المعاني، من تعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، ثم على ما يتصل بعلم البيان. ذهب ابن خلدون إلى أنّ الزمخشري يجب أن يكون في صدر الواضعين لفن البيان، حيث تحدّث في المقدّمة على أن ثمرة علم البيان إنما تكمن في فهم الإعجاز القرآني (وهي فكرة في صميم التداولية)، وقد قال بهذا الصدد أن المفسّرين أحوج الناس إلى هذا الفن، وأنّ أكثر تفاسير المتقدّمين غفل منه، حتى ظهر جار الله الزمخشري، ووضع

كتابه في التفسير، حيث تتبّع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير[1]. يقول الزمخشري: إنّ القرآن معجز بنظمه، وصحّة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، وذلك أنّ الله أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه، فإذا أراد ترتيب اللفظة من القرآن علم – بإحاطته– أيّ لفظةٍ تصلح أن تلي الأولى، وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، بينما البشر يعمّهم الجهل والنسيان، والذهول، ومعلوم أنه لا أحد من البشر يمكنه أن يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول القائل إنّ العرب كان في مقدورهم الإتيان بمثل القرآن ولكن الله صرفهم عن ذلك[2] (رادّاً على القائل بالصرفة).

9. فخر الدين الرازي: ("606 هـ" "ق7هـ"): اختصر كتابيّ الجرجاني في هذه القضية (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة) فظهر رأي الجرجاني بشكل أوضح، غير أنه أضاف أشياءً متعلّقة بالمضمون تعدّ من صميم القضايا التي أثارت نقاشاً كبيراً ضمن موضوع الأدبية. ويمكن تلخيص أهم أفكاره فيما يلي:

أ- إنّ القرآن تجنّب الكذب، ومع ذلك فهو فصيح، بينما أعذب الشعر أكذبه، ولهذا نزلت قيمة شعر حسّان ولبيد بعد الإسلام لتحرّيهما الصّدق.

ب – لا تقع الفصاحة في كل كلام الشاعر أو الخطيب، بينما القرآن كلّه فصيح.

ج- كل فصيح إذا كرّر الكلام في موضوعٍ واحدٍ، لم يحافظ على فصاحته الأولى، والقرآن فصيح في تكراراته الكثيرة.

د- لقد تكلّم في العبادات، وأحكام الدين، والآخرة، والكلام فيها يوجب بعض النّقص في الفصاحة، لأنها مواضيع تشريعية، وجديدة غير مألوفة، ومع ذلك فهو فصيح.

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2002، بيروت، لبنان، ص 422.

[2] الزمخشري: تفسير الكشّاف، م، س، ج2 تفسير سورة الإسراء، ص 436 وما بعدها.

10. السكّاكي (ق7هـ): طرح أفكار في كتابه مفتاح العلوم، ركّز على الذوق، حيث يقول «إنّ شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن، تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة تدرك بالذوق وحده، ويقول إنّ طريق الذوق خدمة البلاغة وممارسة الكلام البليغ»[1].

– عموماً يرى أنّ القرآن معجز بالنظم على طريقة عبد القاهر الجرجاني، وقد كان له الفضل في توسيع وتبويب بحوث البلاغة، وإعطائها شكل القواعد التي هي بين أيدينا اليوم.

11. حازم القرطاجنيّ ("684 هـ" "ق8هـ"): في كتابه "منهاج البلغاء"[2]. قال: إنّ إعجاز القرآن، يكمن في استمرار الفصاحة من جميع جوانبها، وفي جميعه، استمراراً لا يوجد له انقطاع، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب، ومن تكلّم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائه، في العالي منه، إلاّ في الشّيء اليسير المحمود، ثم تعرض الفَتْرات – فَتَر يفْتُر- الإنسانية فينقطع طيب الكلام، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد في تعاريف وأجزاءٍ منه.. إنه طول النفَسِ إذن الذي غلب به القرآن كلام البشر.

12. ابن خلدون (808 هـ): يرى أن الإعجاز يكمن في البلاغة والبيان، الذي تكمن ثمرتهما في إدراك إعجاز النص القرآني، الذي يدركه من كان له ذوقٌ الذي تحصل ملكته بمخالطة اللسان، ويدرك النّاس إعجازه كلٌّ على قدر ذوقه، ولذلك كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلّغه أعلى مقاماً، وذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته[3].

---

[1] السكّاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق نعيم زرزور، ص 176.

[2] حازم القرطاجنيّ: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، ص، 216.

[3] ابن خلدون المقدمة، م، س، ص 105

13. الرّافعي: رأيه مبني على الإعجاز بالنظم، والإعجاز النفسي، يقول إنّه معجز بهذا الضرب الخالص من الموسيقى اللغوية في انسجامه، واطراد نسقه، واتزانه على أجزاء النفس، مقطعاً مقطعاً، ونبرةً نبرةً، كأنّها توقّعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة، ويذكر بهذا الصدد أثر موسيقى القرآن في نفس عمر بن الخطّاب حين أسلم، وأثرها في نفس بعض المشركين، وأنّ من عارضه كمسيلمة لاحظ هذا الجانب الموسيقي فقلّده، ولذلك — يقول الرّافعي- إنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وهذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت[1]. ويمكن أن نلخص رأي الرّافعي في الإعجاز فيما يلي:

أ- بالموسيقى التي فيه

ب- بهذه الروح المستشفة من نظم القرآن، والتي تخاطب الروح، وهي ليست ألفاظاً ذات معنى فقط، بل هي حياة تضطرم، إنها خلقٌ روحي (فيها صوت النفس الطبيعي في تراكيب اللغة العربية، وصوت الفكر أو العقل، ويمتاز القرآن أيضاً بصوت ثالث هو صوت الحس في الألفاظ والمعاني..).

ج- خلو القرآن من الألفاظ التي تتّخذ كمتكأ، وهذا المتكأ يشاهد في كلام البلغاء، حيث يرى أن كلمات القرآن كلها ضرورية في تأدية المعاني التي يريدها، وليس منها ما هو زائد، ترفٌ، أو شكليٌّ استعراضي لا يضيف معنى.

د- في اشتمال القرآن على مبادئ العلوم، وعلى الكثير من المخترعات، والنظريات العلمية.

14. **أمين الخولي**: ركّز على الإعجاز النفسي، ودعّم فكرة أنّ البلاغة خادمة للإعجاز، وتدرك بالذوق، رفض تحويل البلاغة إلى موازين جافة لا روح فيها،

---

[1] الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. نشر مكتبة رحاب. الطباعة الشعبية للجيش بالجزائر (د.ت) ص 222.

ولا فن ولا ذوق، لأنّها بهذه الصفة: ترين على البصيرة، وتضعف قوّة الإدراك، ولا جدوى منها في تكوين روح أدبيّة جيّدة[1].

• **تعليق:** يعتبر أمين الخولي إلى جانب الرّافعي من المجدّدين في موضوع الإعجاز البلاغي في العصر الحديث، حيث عمّق الرّافعي فكرة الموسيقى والإعجاز الروحي، وعمّق أمين الخولي ذلك إلى فكرة الإعجاز النفسي.

15. سيد قطب: يرى سيد قطب أنّ الإعجاز في القرآن ليس في التشريع ولا في الإخبار عن الغيوب، والعلوم الكونية، كما ذهب إلى ذلك بعضهم، بل قائم على الإبداع في العرض، والجمال في التنسيق، والقوّة في الأداء، وهي تتمثل – حسب رأيه– في ثلاثة أرباع القرآن التي استعمل فيها التصوير الفني[2]، فللإعجاز وجوه كثيرة منها الأداء القرآني الواسع، الدقيق، الجميل، المتناسق بين المدلول والعبارة، والظلال، والجو النفسي حيث أنّ «القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرّد مرّة، وحسّها المتوفّر مرّة، ولكنه يخاطبها جملةً، ويخاطبها من أقصر الطريق، وبكل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرّة واحدة كلما خاطبها»[3].

ويذكر أسباباً كثيرةً للسر الخاص في تأثير عبارات القرآن، منها: العبارة، والمعنى، والصور، والظلال، والإيقاع الخاص المتميّز، ففي تفسيره لآية التحدّي في سورة البقرة (الآية: 23) يقول: «الشأن في إعجاز القرآن، هو الشأن نفسه، في خلق الله جميعاً، فالفرق بين كلام الله وكلام النّاس، كالفرق بين صنع الله وصنع النّاس، فعمل الناس في التراب والمواد لا يتجاوز صنع الأواني والآلات، والتماثيل وسائر الأشياء، التي ليس فيها حياة، وعمل الله في التراب أنه يصنع منه الحياة الحيوانية والنباتية، ينفخ فيه الروح، وكذلك الأمر في صناعة الكلام، من الحروف (أ،

---

[1] أمين الخولي: فن القول، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 83 84.وينظر أيضاً التفسير الأدبي للنص القرآني: مصطفى الصّاوي الجويني منشأ المعارف، الإسكندرية 2002، ص 104.

[2] سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق بيروت، (دت) المقدّمة.

[3] م، ن، المقدّمة.

ل، م) — وهي فاتحة سورة البقرة- التي هي من جنس لغة العرب يجعل الله منها قرآناً، ينفخ فيه الروح — الحياة- بينما يصوغ العرب منها كلاماً عادياً لا يضاهي القرآن ولا يقاربه.. القرآن كالروح من أمر ربّي وحده»[1].

ويرى سيد قطب أنّ التصوير الفني هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن (شمل أكثر من ربعه) حيث يتبع تصوير المعاني الذهنية، والحالات النفسية، وإبرازها في صور حسيّة، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعيّة، والحوادث الماضية، والقصص المروية، والأمثال القصصية، ومشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، والنماذج الإنسانية، كأنّها كلّها حاضرة شاخصة بالتخيّل الحسّي الذي يفعمها بالحركة المتخيّلة[2].

إنّ وظيفة الفن الأولى — عنده- هي إثارة الانفعالات الوجدانيّة، وإشاعة اللذة الفنيّة بهذه الإثارة، وإحاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذيّة الخيال، بالصور لتحقيق هذا جميعه، وكل ذلك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل[3].

ويمكن لي أن أجمل رأي سيد قطب في الإعجاز القرآني، من خلال قراءتي لكتابيه التصوير الفني في القرآن ومشاهد القيامة في القرآن، وكذلك بعض المواضيع من التفسير في ظلال القرآن المتعلّقة بالموضوع في ثلاثة عناصر كما يلي:

- الأسلوب المنساب مع غزارة العلم، والتناسق في العرض.
- التصوير الحسّي للأفكار والمعاني المجردة وكثافة الظّلال المصاحبة.

---

[1] سيد قطب: تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت ط1، 1985. ج1. سورة البقرة.

[2] المصدر نفسه، ط. دار الشروق، القاهرة (دت) المقدمة.

[3] سيد قطب: التصوير الفني، م، س، ص 197 وما بعدها، (ويكرر الفكرة كثيراً في الكتاب.

– الحرارة في الدفاع عن الرأي والتوجه بالتأثير إلى كل الذرات المكوّنة للكينونة البشرية عقلاً وحساً، وروحاً، ومشاعر... واستغلال كل أجهزة الاستقبال والتلقي الموجودة عند الإنسان.

16. مالك بن نبي: تناول الموضوع من زاوية لم يسبقه إليها أحد مستفيداً من التاريخ والأنثروبولوجيا في كتابٍ متفرّد وسمه بـ"الظاهرة القرآنية"[1]. يمكن تلخيص فكرته حول إعجاز القرآن بالإضافة إلى ما سبق إليه علماء الإعجاز فيما يلي: ركّز على أنّ هذا القرآن المذهل أتى به رجلٌ أميٌّ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة..بدويٌّ، راعي غنم، في بيئةٍ بدوية، من أجلاف البدو، في صحراء جرداء، مقطوعة الصلة بالحضارات والعلوم، لا يمكن أن يكون له من العمق الفكري والفلسفي ما يمكّنه أن يبتكر نصّاً على هذه القيمة من الإبداع والإعجاز، فإذا قارنا بيئة الرجل النبيّ وثقافته البسيطة بما جاء في القرآن من إبداعٍ باهرٍ نلحظ بالعين المجردة أننا أمام معجزةٍ حقيقيةٍ لا يجادل فيها إلاّ مكابرٌ، معاندٌ، مستغلق المشاعر، معصوب العين والوجدان. فكرة مالك بن نبي حول الإعجاز تجسّدها الآية: "وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ، ولا تخطّه بيمينك، إذاً لأرتاب المبطلون". العنكبوت الآية: 47.

أي ما يعني أنّ الموضوعات التي تضمّنها القرآن الكريم تختلف عن الموضوعات التي كانت تشغل بال الفكر الجاهلي، وهي فوق مستوى الفكر الجاهلي، وفوق مستوى فكر الرسول، وفوق مستوى عصره وهو ما يثبت أنّ القرآن ليس من كلام البشر.

تعليق: واضح أن طرح مالك بن نبي فيه جماع ما تذهب إليه اتجاهات كثيرة في الشعرية الحديثة، حين تركز على: المرسل، والبيئة، والدراسات الأنثروبولوجية، والتاريخانية، والسّيْقَنَة. وهي المنهجية نفسها التي اتبعها طه حسين، في كتابه ،في

[1] انظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر (الجزائر، دمشق)، ط1 1987.

الشعر الجاهلي، حين حاول سَيْقَنَةَ الشعر الجاهلي،ضمن البيئة الجاهلية، ومقارنته بالقرآن الكريم، ثم استنتاجه لفكرة الانتحال الشهيرة.

17. سعيد رمضان البوطي: يرى في كتابه "روائع القرآن" أنّ إعجاز القرآن يفرض نفسه من خلال أربعة مظاهر كما يلي[1]:

أ- **المظهر الأول**: أسلوب القرآن وله أربعة خصائص:

1.النّسق البديع، الذي هو ليس من الشّعر، وليس من النّثر المعروفين.

2.المستوى الرّفيع الواحد في جميع الأغراض والموضوعات، والذي يستطيع أن يخاطب كل أصناف المتلقين.

3.الألفاظ المنتقاة بحيث يخاطب بها الناس جميعهم على مختلف مستوياتهم فمهما كان المتكلّم غزير اللغة فإنه لا يستطيع أن يستعرض في ذهنه جميع الألفاظ التي يمكن أن يختار أحدها للمعنى الذي يريده في كل الحالات، ولكن العكس موجود في القرآن حيث أن كلاً من المعنى واللفظ مرآة للآخر، ولا يرى أحدهما تابعاً والآخر متبوعاً، بل يرى أنّهما متطابقان منسجمان، متلازمان، لا اختلاف بينهما ولا تفاوت. ولا يمكن إبدال كلمة من القرآن بأخرى تنوب عنها تماماً، ولو استطاع أحد ذلك لأبطل إعجاز القرآن.

تكرار الألفاظ والجمل والمعاني بقوالب مختلفة متجدّدة، مهما كان الموضوع: حيث أن تكرار الألفاظ والجمل يأتي للتأكيد، وينطوي على نكت بلاغية أخرى كالتهويل، والإنذار، والتجسيم والتصوير... وغيره.

أما تكرار المعاني والأقاصيص والأخبار، فيكون من أجل تثبيت المعنى في الأذهان بأشكال متعدّدة، وهي طريقة تربوية محكمة، ومن أجل التفنّن في القول ليتجلى إعجاز القرآن، وقصور الطاقة البشرية عن تقليده.

---

[1] انظر: البوطي: روائع القرآن، مكتبة الفارابي، دمشق ط2 1977 ص 176 وما بعدها.

ب- المظهر الثاني: الكلمة القرآنية: تمتاز بجمال الإيقاع في السمع، والانساق مع المعنى، فتشم رائحة المعنى، أو تلمحه فيها، وباتساع دلالتها بطريق الإيحاء أو الشمول، لتنوب كلمة عن كلمات أو جمل وقد توجد في بعض تعابير الأدباء إحدى هذه الخواص، ولكن اجتماعها كلها لا يتوافر إلاّ في القرآن.

ج- المظهر الثالث: الجملة القرآنية: حسن صياغة الجملة بحيث تتلاءم كلماتها وتتسق اتساقاً كاملاً، وتتلاحق حركاتها، وسكناتها، بحيث يكون لها إيقاع رائع، ودليل هذا التلاؤم والاتساق أن حفظ القرآن أيسر من حفظ سائر النثر. ومن خصائص الجملة القرآنية دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى، وإخراج المعنى المجرّد في مظهر الأمر المحسّ الملموس، وبث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه، بحيث تتحرك في الخيال كأنها قصّة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة، والحركة المشاهدة الملموسة، ويستقبل القارئ معاني الآيات بكل من عقله وخياله معاً.

د- المظهر الرابع: تجلّي الربوبيّة من خلال الألفاظ، يقول البوطي: إنّ هذا المظهر، لم يتنبّه إليه أحد قبله، ويعجب من ذلك، ويتمثل في تجلّي الرّبوبية وكبريائها في الكثير من الآيات القرآنية، وألفاظها، وهو ما لا يقوى أحدٌ على اختلاقه في أي صنف من المعاني والكلام..وهو أهم مظاهر إعجاز القرآن.. وذلك أن الكلام هو مرآة لطبيعة المتكلّم، ولا بدّ أن تتجلّى واضحةً فيه، كلّما أوغل في موضوعاته أو بحوثه، ولابدّ أن تظهر فيه طبيعة المتكلّم مهما أخفاها، ومن هنا لا يستطيع إنسان أن يظهر في كلامه رهبة الربوبية وجبروتها في صياغة لا تكلّف فيها ولا تمثيل. ذلك لأنّ الطبيعة البشرية لا يمكن أن تفارقه، فيأتي كلامه متهافتاً مضطرباً. وما ذهب إليه الدكتور البوطي في رأيي صحيح وجدير بالملاحظة لأنّ الأسلوب هو الإنسان كما يقول بوفون.

18. **مصطفى محمود**: تناول الموضوع في كتابٍ وسمه بـ"القرآن: محاولة لفهمٍ عصريّ" يمكن أن نلخّص ما جاء فيه حول الإعجاز في المقطوعة التالية من الكتاب: «..ذلك التشكيل، والسبكُ، والتلوين في الحروف، والعبارات، في مغمارٍ، هو نسيجٌ وحده بلا شبيه، من قبل أو بعد..كلّ ذلك يتم في يسرٍ شديدٍ، لا يبدو فيه أثرُ اعتمالٍ، أو افتعالٍ، أو اعتسافٍ... وإنّما تسيل الكلمات في بساطةٍ شديدةٍ، لتدخل القلب، فتثير ذلك الإحساس الغامض بالخشوع، من قبل أن يتيقّض العقل فيحلّل ويفكّر، ويتأمّل..مجرد قرع الكلمةِ للأذن، وملامستها للقلب، تثير ذلك الشيء الذي لا أجد له تفسيراً..هذه الصفة في العبارة القرآنية، إلى جانب كلّ الصفات الأخرى مجتمعةً هي التي تجعل من القرآن ظاهرةً لا تفسير لها فيما نعرف من مصادر الكلام المألوف»[1]، ويقول أيضاً: «ثم هو يقدّم إليك حكمة الأزل، ودستور الحياة الأمثل، وفلسفةً في الأخلاق والحكم، واللاهوتِ وفي ما وراء الطبيعةِ، وفي المعاملات، وفي الزواج والمعاشرة، والحرب والسلم، وشرائع العبادات..في أسلوبٍ منفردٍ وعبارة شامخة البنيانِ، وجمالٍ بلاغيٍّ هو نسيج وحده، لا هو بالشعر، ولا بالمقامة المنثورة، ليس له شبيهٌ سابقٌ، ولا تقليدٌ لاحقٌ..يلقيه الوحي في تجدٌّ، باقٍ على الأعصر والدهور»[2].

---

[1] مصطفى محمود: القرآن محاولةٌ لفهمٍ عصريٍّ، دار العودة بيروت 1979، ص 265، 266.

[2] م.ن، ص 265، 266.

لعلّنا قد أطلنا في تتبع موضوع الإعجاز القرآني؛ ولكنّ مبررنا أنّ كل الأفكار الهامة التي ظهرت في النقد العربي، والتي يمكن اجمالها في: قضايا الشكل والمضمون، والمرسل، ونظريات التلقي،التأثير النفسي والإبهار،نظريات البيئة والسّيْقَنة والاتجاهات الأنتروبولوجية والتاريخانية، والشحونة الفكرية والقيمية، والنفعية والبراغماتية،... وغيرها،حل هذه القضايا يمكن أن نجدها في ثنايا ما تمّ عرضه آنفاً عند علماء الإعجاز إن تصريحاً أو تلميحا، ممّا يُحيل على التواشج الكبير بين نظرية الأدب، عند العرب، ونظرية الإعجاز ، بما يسمح بالتّأكيد على أنّ الأفكاريّة النقديّة العربيّة، برمّتها، ليست سوى خادمة لغائيّة دافعها دينيّ يروم إلى الإقناع، بتعالي النّص الديني وتفرّده، وفي ذلك ما فيه من أبعاد تداوليّة. ولقد أشار إلى هذه الفكرة كثير من الباحثين، ومنهم محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام في مقدّمتهما لكتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم" للرّمّاني والخطّابي والجرجاني، حيث قالا: «..من الظواهر التي تنبّه إليها هذا البحث، ما كان بين دراسات القرآن، ودراسات النقد والبلاغة من صلاتٍ وتأثير متبادل، وممّا لفت الباحثين إلى هذه الناحية ما لاحظوه في كتب النقد والبلاغة؛ وعلى الأخص ما ألّف منها في القرون الوسطى الهجرية، من تلاقي تيارين كبيرين ينبع أحدهما من ظواهر البلاغة القرآنية، والآخر من خواص الجودة الأدبية في الشعر والنثر..» [1]، ويقول عبد المالك مرتاض في هذا المجال: «..لقد أثّر القرآن الكريم كثيراً في تفكير المسلمين وفي أساليب كتاباتهم أيضاً، بل إنّ هذا التأثير النافع شمل أشعارهم أيضاً. وذلك بعد التخلّص من مرحلة الانبهار التي فارقت عهد النبي صلى الله عليه وسلّم وخلفائه الأربعة الراشدين. فعبثاً نحاول العثور على نثر

[1] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرّمّاني والخطّابي والجرجاني، م، س، المقدمة ص 07.

عربي صحيح المتن، ومنتشر بوفرة قبل ظهور الإسلام سوى ما روي عن خطبة قس بن ساعدة الإيادي التي قيل إنّ الرسول الكريم هو نفسه الذي رواها...»[1].

وخلاصة الرأي أنّ النظرية الشعرية والنقدية العربية، تواشجت مع النص الديني كثيراً، وأصبحت خادمة له تقليداً ودعايةً وتقمصّاً.وقد جعلها ذلك منخرطة في التداولية إلى حدٍّ بعيدٍ لا يمكن إغفاله بحالٍ من الأحوال.

[1] عبد المالك مرتاض: نظام الخطاب القرآني، تحليل سيميائي مركّب لسورة الرحمن، دار هومة الجزائر ط1 2001 ص 13